

إثبات النزول والمحيء لله تعالى

بعد ذلك ذكر مسألة أخرى، وهي مسألة النزول، ومسألة المجيء، مسألة النزول يقول: قد روى الثقات عن خير الملا بأنه عز وجل عولا في ثلث الليل الأخيرة ينزل يقول هل من تائب فتقبل هل من مسيء طالب للمغفرة يجد كريما قابلا للمغفرة يمن بالخيرات والفضائل ويستر العيب ويعطي السائل مسألة النزول ثبتت في الأحاديث الصحيحة، رويت عن نحو عشرة من الصحابة ذكروا أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: { ينزل ربنا إلى سماء الدنيا حين يبيق ثلث الليل الآخر، فيقول: هل من سائل فأعطيه، هل من تائب فأتوب عليه، هل من مستغفر فأغفر له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له حتى يطلع الفجر } هكذا جاءت في هذه الأحاديث، رواها الذين رواوا لنا الأحكام والشرع. يقول أبو الخطاب في عقيدته: - قالوا النزول فقلت ناقله لنا قوم همو نقلوا شريعة أحمد قالوا فكيف نزوله فاجبهم لم ينقل التكليف لي في مسند صحيح ناقله لنا قوم هم نقلوا شريعة أحمد ؟ فإذا ردناه هذا الحديث توجهت إلينا الطعون، أي في أنكم كيف تردون هذا وتقبلون الأحاديث الأخرى التي نقلها مثل هؤلاء { أَفَتُؤْمِنُونَ بِعَصْبَى الْكِتَابِ وَأَنَّكُفُرُونَ بِعَصْبَى } لا فرق بينها السنة صحيحة بهذه الأحاديث، فكيف مع ذلك تقبلون البعض وتردون البعض ؟ إن هذا تفريق بين ما جمع الله تعالى بينه، فلا بد أن نقله- قبل هذا الخبر- وهذه الأخبار كما قيلنا بقية السنن التي بهذا المعنى، والتي بهذه الأسانيد. روى الثقات: أي الآيات، عن خير الورى: أي عن نبينا - صلى الله عليه وسلم - الذي هو خير الملا، بأنه - عز وجل وعلا - في ثلث الليل الأخيرة ينزل: نزولا يليق به، وقد كثر كلام الأشاعرة، والمعترضة، والرافضة، والإباضية، ونحوهم حول هذا الحديث، ورفع سؤال إلى الإمام شيخ الإسلام ابن تيمية أن رجلى اختلفا أثبت أحدهما النزول، والأخر أنكره، ومن حجة الذي أنكره يقول: إن الليل مختلف باختلاف البلاد؛ فيكون ثلث الليل هاهنا - في هذه البلدة - وبعد ساعة يبدأ ثلث الليل في البلدة التي قادها، وبعد ساعة يبدأ ثلث الليل في بلدة أمامها، فلا يزال ثلث الليل موجودا، فمعنى ذلك أن النزول لا يزال مستمرا فكيف يكون هذا النزول ؟ رفع السؤال إلى شيخ الإسلام؛ فكتب فيه رسالة مطبوعة عدة مرات ومحقة بعنوان "شرح حديث النزول" ، ابتدأها - رحمة الله - بالأدلة عليه، ذكر بعض الأحاديث وإن لم يستوف جميعها، ثم بعد ذلك تكلم على إجمال صفات الله، وأنه - سبحانه وتعالى - يوصف بما وصف به نفسه، وبما وصفه به نبيه - صلى الله عليه وسلم - لا يتجاوز القرآن والحديث، وإذا كان كذلك فإن هذا مما جاءت به السنة، ثم بعد ذلك ذكر أن صفاته لا تشبه الصفات، فإنه - سبحانه وتعالى - لا يشغل شأن عن شأن، فهو ينزل كما يشاء ولا يقول، إن كيفية نزوله كما وكذا؛ بل ثبت ما أثبته الله تعالى - عليه الصلاة والسلام - وترك ما خالف ذلك. ثم ذكر أنه لا مانع من أن ينزل كما يشاء فيقول لهؤلاء: من يسألني فأعطيه ؟ من يستغرنـي فأغفر له ؟ من يتوب إلى فأتوب عليه ؟ ويقوله للآخرين في وقت آخر، ولا يقول: إنه يشغل بهؤلاء عن هؤلاء، فهو - سبحانه وتعالى - لا يشغل شأن عن شأن، لا تغلطه كثرة المسائل، ولا تشتبه عليه الأصوات، ولا تغلطه كثرة المسائل مع اختلاف اللغات وتنافس المسئولات، وأطال في ذلك. وتكلموا أيضا على حقيقة النزول، هل يخلو منه العرش ؟ وهل تكون السماوات فوقه إذا نزل ؟ كل هذا مما يتوقف أهل السنة، فيذكرون أن هذا نزول حقيقي - كما يشاء الله - ولا يقول: يخلو منه العرش، ولا يقول: إن السماوات تقله أو تظلـه أو ما أشبه ذلك. فعلـى هذا ثبت النزول كما يشاء، ولا يقول: إن كيفية النزول كذا وكذا، والذين ذكروا أن شيخ الإسلام يقول: إنه نزول كنزول الإنسان من أعلى إلى أسفل، خطأهم العلماء، ولم يقل ذلك شيخ الإسلام، وإن كدب عليه من كذب: فلا يلتفت إلى أقوالهم، بل إنه يثبت النزول، ويقول: إنه كما يشاء الله. قد ذكرنا قول أبي الخطاب في قوله: قالوا فكيف نزوله فأجيبهم لم ينقل التكليف لي في مسند والحاصل أنا ثبت ذلك، وقبله للأدلة الكثيرة عليه، وأنه يقول: هل من تائب فتقبل توبيته؟ هل من مسيء طالب للمغفرة؟ من يستغرنـي فأغفر له ؟ من استغفره؛ يجد كريما قابلا للمغفرة، هل من تائب فأتوب عليه ؟ هل من سائل فأعطيه ؟ فهو: يمن بالخيرات والفضائل ويستر العيب ويعطي السائل مسألة النزول ذكرها المؤلف في شرحه: "معارج القبور" ، تنوعت بلطف ينزل أو يهبط، هبط، نزل، وهذا يدل على أنه حقيقي، ولكن الكيفية هي التي تتوقف عنـها، ككيفية الاستواء - كما قال الإمام مالك - الاستواء معلوم، والكيف مجهول، ونقول: النزول معلوم، والكيف مجهول. بعد ذلك يقول: وأنه يحيـي يوم الفصل كما يشاء للقضاء العدل هذا أيضا مما كبر على النفاـة، كبر على المـuttleـة، وهو المـجيـء يوم القيـمة؛ وذلك لأنـه جاء في القرآن ذكرـيـفـيـكـيـفـ مع ذلك يجوز إنكارـه ؟ ذكرـه الله تعالى في القرآن في ثلاث آيات: الآية الأولى في سورة البقرة: { هـل يـنـظـرـونـ إـلـاـ أـنـ يـأـتـيـهـمـ اللـهـ فـيـ طـلـيـ منـ الـعـقـامـ وـ الـمـلـائـكـةـ } . والآية الثانية في سورة الأنعام: { هـل يـنـظـرـونـ إـلـاـ أـنـ يـأـتـيـهـمـ الـمـلـائـكـةـ } . الآية الثالثة في سورة الفجر: { كـلـاـ إـذـاـ دـكـتـ الـأـرـضـ دـكـاـ دـكـاـ وـ جـاءـ رـبـكـ وـ الـمـلـكـ صـفـاـ صـفـاـ } . ثم جاء ذلك في عدة أحاديث، منها حديث الشفاعة، وأنـهم يطلبـون من الأنـبيـاء الشفـاعة حتى يـجـيءـ اللهـ لـفـصـلـ الـقـضـاءـ، وـأـنـ الـمـلـائـكـةـ يـنـزـلـونـ صـفـاـ صـفـاـ، ثم يـجـيءـ اللهـ تعالىـ كما يـشـاءـ لـفـصـلـ الـقـضـاءـ، وـأـنـ الـمـلـائـكـاتـ هـكـذاـ يـعـبـرـونـ، يـعـنـيـ أنـ المـجيـءـ والـذـهـابـ والمـجيـءـ وـالـنـزـولـ وـنـحـوـ ذـلـكـ، إنـماـ هوـ يـنـطـبـقـ عـلـىـ الـمـحـدـثـاتـ وـالـلـهـ - تعالىـ - ليسـ بـمـحـدـثـ وـعـلـىـ الـمـرـكـباتـ، الـتـيـ تـرـكـ مـنـ كـذـاـ وـكـذـاـ، وـهـمـ مـعـ ذـلـكـ يـنـكـرـونـ الـصـفـاتـ الـذـاتـيـةـ؛ فـيـنـكـرـونـ صـفـةـ الـوـجـهـ - معـ الـأـدـلـةـ عـلـىـ أـنـ يـلـزـمـ مـنـ الـتـرـكـيـبـ، وـيـنـكـرـونـ صـفـةـ الـيـدـيـنـ - مـعـ وجودـ الـأـدـلـةـ عـلـىـهـاـ. الـأـدـلـةـ الـكـثـيرـةـ الـكـتـابـ وـالـسـنـةـ، مـعـ صـرـاحـتـهـاـ، وـيـقـولـونـ: إنـ هـذـاـ يـلـزـمـ مـنـ التـرـكـيـبـ، فـكـذـلـكـ يـقـولـونـ: المـجيـءـ وـالـنـزـولـ يـلـزـمـ مـنـ أـنـ يـكـونـ مـرـكـبـاـ تـعـالـىـ اللـهـ عـنـ قـوـلـهـ، هـكـذاـ يـعـبـرـونـ. ثـمـ يـعـبـرـونـ أـيـضاـ بـقـولـهـ: إـنـ يـكـونـ مـحـلاـ لـلـحـوـادـثـ؛ فـلـاـ نـقـبـلـ ذـلـكـ؛ لأنـهـ إـذـاـ أـثـبـتـاهـ جـعـلـنـاـ الرـبـ مـحـلـ لـلـحـوـادـثـ - هـكـذاـ يـعـبـرـونـ - وـقـدـ عـبـرـ عـنـهـ مـنـ الـمـاتـخـرـينـ فـيـ ذـلـكـ عـبـارـاتـ كـثـيرـةـ - الـذـيـ يـسـمـيـ زـاهـدـ الـكـوـثـرـيـ عـالـمـ عـنـهـ عـلـمـ بـالـحـدـيـثـ، وـعـنـهـ عـلـمـ بـالـرـجـالـ، وـلـكـنـ كـانـ مـنـعـصـيـاـ لـمـعـقـدـ الـأـشـعـرـيـ، وـلـمـذـهـبـ الـحـنـبـلـيـ، وـكـانـ أـيـضاـ يـحـلـ عـلـىـ عـلـمـاءـ سـلـفـ الـأـمـةـ، مـعـرـوـفـ مـاـتـ قـلـ نـحـوـ سـتـيـنـ أـوـ سـبـعينـ سـنـةـ، وـمـؤـلـفـاتـهـ وـتـحـقـيقـاتـهـ وـتـحـرـيفـاتـهـ الـتـيـ أـفـسـدـ بـهـ كـثـيرـاـ مـنـ الـكـتـبـ مـوـجـودـةـ، فـهـكـذاـ يـعـبـرـ يـقـولـ: إـذـاـ أـثـبـتـ هـذـهـ الصـفـاتـ كـانـ ذـلـكـ دـلـيـلـاـ عـلـىـ حـدـوثـ أـوـ حـلـولـ الـحـوـادـثـ بـالـرـبـ تـعـالـىـ. فـنـقـولـ: لـاـ يـلـزـمـ مـنـ ذـلـكـ إـذـاـ أـثـبـتـ الصـفـاتـ، السـمـعـ وـالـبـصـرـ؛ لأنـكـ ثـبـتـ السـمـعـ وـالـبـصـرـ وـالـقـدـرـةـ وـالـإـرـادـةـ، يـعـنـيـ ثـبـتـ السـبـعـ الصـفـاتـ الـتـيـ يـثـبـتـهاـ الـأـشـاعـرـةـ وـيـنـفـيـ مـاـ عـدـاـهـ؛ فـعـلـىـ هـذـاـ لـاـ يـلـزـمـ مـلـقـالـوـهـ مـنـ حـلـولـ الـحـوـادـثـ. وـالـحـاـصـلـ أـنـ صـفـةـ الـمـجـيءـ ثـقـلتـ عـلـيـهـ؛ فـكـانـواـ يـقـدـرـونـ مـحـدـوفـاـ { وـجـاءـ رـبـكـ } أـيـ جـاءـ أـمـرـهـ، وـكـذـلـكـ { أـوـ يـأـتـيـهـ رـبـكـ } أـيـ يـأـتـيـهـ أـمـرـهـ - هـكـذاـ قـالـواـ - اـسـتـدـلـ الـكـوـثـرـيـ عـلـىـ ذـلـكـ بـالـآـيـةـ الـتـيـ فـيـ سـوـرـةـ الـنـحـلـ: { هـل يـنـظـرـونـ إـلـاـ أـنـ يـأـتـيـهـمـ الـمـلـائـكـةـ } أـوـ يـأـتـيـهـ أـمـرـ رـبـكـ } فـيـقـولـ: جـاءـ فـيـ هـذـهـ الـآـيـةـ: { يـأـتـيـهـ أـمـرـ رـبـكـ } فـكـذـلـكـ نـحـمـلـ قـوـلـهـ: { هـل يـنـظـرـونـ إـلـاـ أـنـ يـأـتـيـهـمـ اللـهـ فـيـ طـلـلـ مـنـ الـعـقـامـ } نـقـولـ: يـأـتـيـهـ أـمـرـ اللـهـ، الـقـرـآنـ - كـمـاـ يـقـولـ - يـفـسـرـ بـعـضـهـ بـعـضـ، وـالـجـوابـ: أـنـ آـيـةـ الـنـحـلـ: { أـوـ يـأـتـيـهـ أـمـرـ رـبـكـ } يـرـادـ بـهـ فـيـ الدـنـيـاـ هـلـ يـنـظـرـونـ إـلـاـ أـنـ يـأـمـرـ اللـهـ تـعـالـىـ بـعـذـابـهـ وـيـأـتـيـهـ أـمـرـ اللـهـ تـعـالـىـ يـأـمـرـ بـإـهـلـاـكـهـ يـكـذـبـ إـلـاـ وـكـذـاـ، وـالـآـيـةـ مـكـيـةـ تـهـدـيـ لـلـمـكـذـبـيـنـ مـنـ أـهـلـ مـكـةـ أـنـ يـأـتـيـهـ أـمـرـ اللـهـ، كـمـاـ فـيـ قـوـلـ اللـهـ تـعـالـىـ: { أـفـمـنـوا مـكـرـ اللـهـ فـلـاـ يـأـمـنـ مـكـرـ اللـهـ إـلـاـ الـقـوـمـ الـحـاسـرـوـنـ } فـلـاـ مـنـافـاةـ كـلـ وـاحـدـةـ مـنـ الـآـيـتـيـنـ لـهـ مـعـنـيـ، فـيـكـونـ مـجـيءـ اللـهـ فـيـ الـآـخـرـةـ كـمـاـ يـشـاءـ.